الفصل الثالث والعشرون

فيه كتاب محاسبة النفس ومراعاة الوقت[1]

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إلى قوله: ﴿أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقرئت: «آتينا بها» ممدودة، أي: جازينا بها، فالتخويف بهذا الحرف أشد وأبلغ. وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة:٦] الآية.

وأوصى أبو بكر عمرَ رضى الله عنهما عند موته، فقال: إن الحقَّ ثقيل وهو مع ثقله مريء، وإن الباطل خفيف وهو مع خفته وبيء. وإن لله عزّ وجلّ حقًا بالنهار لا يقبله بالليل، وحقًا بالليل لا يقبله بالنهار، وإنك لو عدلت على الناس كلهم وجُرت على واحد منهم لمال جورُك بعدلك. فإن حفظت وصيتى لم يكن شيء أحبّ إليك من الموت وهو مُدركُك، وإن ضيَّعتَ وَصِيَّتى لم يكن شيء أبغضَ إليك من الموتِ ولن تُعجزه.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: حاسِبُوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزيّنوا للعرض الأكبر على الله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨]، وإنّما خفَّ الحسابُ فى الآخرة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا، وثقلت موازين قوم فى الآخرة وزنوا أنفسهم فى الدنيا، وحق لميزان لا يُوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً.

وأوصى رسول الله ﷺ أبا ذر فقال له: «اتّقِ اللهَ أينما كنتَ، وأتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تمحها، وخالقِ الناسَ بخُلُقٍ حسن».

---

(١) فى (ك): «هذا كتاب محاسبة النفس ومراعاة الوقت». ويوجد اختلاف فى ترتيب المادة بين المخطوط والمطبوع فى مواضع كثيرة، ويوجد أيضًا نقص فى محتويات المخطوط واختصار أحيانًا. وانظر فى المحاسبة: الإحياء ٤/ ٤٠٤ ـ ٤٢٢، كتاب المراقبة والمحاسبة.

ووجدت هذه الوصية فى كتاب الله عزّ وجلّ لعباده بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ [النساء:١٣١]. والكلمة الثانية فى قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد:٢٢] أى يدفعون بعمل الحسنة ويتبعونها السيئة المتقدمة تكفرها. والكلمة الثالثة فى قوله تعالى. ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]. وقد أخبر الله عزّ وجلّ عن وصية عباده الصالحين بثلاث فقال: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ أى: لفى خسران ونقص بفوت أوقاته وفقد أرباحه، ثم استثنى فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر:٢ ـ ٣]. وقال فى الوصف الثالث: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧].

واتباعُ الحق بمخالفة الهوى فيه الصلاح؛ إذ فى موافقة الهوى الفساد. والصبرُ قوامُ الأمر، وبمقداره يكون الربح. والرحمةُ للخلق بابُ الرحمة من الخالق، ومفتاح حسن الخلق، ومعها حسن الظن وسلامة القلب، وعندها ينتفى الحسَد والغلّ، ويُوجد التواضع والذل؛ وهذا وصف أصحاب رسول الله ﷺ الذين اختارهم الله لصحبة نبيه عليه السلام، وأنزل عليهم السكينة وأيدهم بروح منه، فقال: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]. وقال تعالى فى حقيقة الرحمة: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤]، وقال فى مثله عن وصف أحبابه لإخوانهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٤]. فهذه الثلاث مفاتيحُ رقة القلب ومغالقُ القسوة. وفى الرقّة الإقبال على الله عزّ وجلّ، وعلى الدار الآخرة، والتيقظ لأمره، والتفكّر فى وعده ووعيده. وفى القسوة الإعراضُ وطولُ الغفلة. فمحاسبة النفس تكون بالورع، وموزنتها تكون بمشاهدة عين اليقين، والتزيُّن للعرض الأكبر يكون بمخافة الملك الأكبر، وهو حقيقة الزهد.

وروينا عن على رضى الله عنه: أما بعد، فإن المرء يَسُرُّه دَرْكُ ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فَوْتُ ما لم يكن ليدركه. فما نالك من دنياك فلا تكترث به فرحًا، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفًا. وليكن سرورُك بما قدَّمت، وأسفُك

على ما خلّفت، وشغلُك لآخرتك، وهمُّك فيما بعد الموت. وقال أيضًا: الهوى شريكُ العمى، ومن التوفيق الوقوفُ عند الحيرة، ونعم طاردُ الهم اليقين، وعاقبة الكذب الذم، وفى الصدق السلامة. ربّ بعيد أقرب من قريب، وغريب من لم يكن له حبيب. والصديق من صدق غيبه، ولا يعدمك من حبيب سوء الظن. نِعم الخُلق التكرم، والحياءُ سبب إلى كل جميل. وأوثق العرى التقوى، وأوثق سبب أخذت به نفسك سببٌ بينك وبين الله عز وجلّ. إنّما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك. والرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأته أتاك. وإن كنتَ جازعًا على ما أتلفت من يديك فلا تَجْزَعَنَّ على ما لم يصل إليك، واستدلّ على ما لم يكن بما كان، فإن الأمور أشباه.

وقال عبد الله بن عباس: لكل شىء آفةٌ، وآفةُ العلم النسيان، وآفة العبادة الكسل، وآفة اللُّب العُجْب، وآفة الظَّرْف الصَّلَف[1]، وآفة التجارة الكذب، وآفة السخاء التبذير، وآفة الجمال الْخُيلاء، وآفة الدين الرياء، وآفة الإسلام الهوى.

وقال رسولُ الله ﷺ: «آفة أمتى الدينار والدرهم». وروينا عن وبرة السّلمى عن مجاهد قال: أوصانى ابنُ عباس بخمس، لَهُنَّ أحسنُ من الدرهم الموقوف ومن الذهب الموصوف. قال: لا تتكلمنّ فيما لا يعنيك؛ فإنّه أقرب لك من السلامة، ولا آمن عليك الخطأ. ولا تتكلمنّ فيما يعنيك حتى ترى له موضعًا، فربَّ متكلم فيما يعنيه قد وضعه فى غير موضعه، فلقى عَنَتًا. ولا تُمارِينَّ حليمًا ولا سفيهًا، أما الحليمُ فيَقْلِيك، وأما السّفيه فيُؤذيك. واخْلُف أخاك إذا غاب عنك بمثل ما تحب أن يخلفك به إذا غبتَ عنه، واعفه مما تحب أن يعفيك منه. واعمل بعمل رجل يعلم أنه مُكَافَأ بالإحسان مأخوذ بالإساءة.

وفى وصية العباس لابنه عبد الله قال: يا بنى، إنى أرى هذا الرجل يقدِّمك على الأشياخ ويكرمك، فاحفظ عنّى هذه الخصال: لا تفشينَّ له سرًا، ولا تَعصينَّ له أمرًا، ولا تغتابنّ عنده أحدًا، ولا يطَّلعن منك على خيانة، ولا يُجرِّبن عليك كذبة.

(١) الظرف: البراعة وذكاء القلب. الصلف: مجاوزة القدر فى البراعة تكبراً.

هذا فى روايتين، دخلت إحداهما فى الأخرى، قال فى إحداهما: قلت للشّعبى: كل واحدة منهن خير من ألف. فقال: كلّ واحدة منهن خير من عشرة آلاف.

وقال يوسف بن أسباط: كان يقال: ثلاث من كنّ فيه فقد استكمل إيمانه: مَن إذا رضى لم يُخرجه رضاه إلى باطل، وإذا غَضِب لم يخرجه غضبه عن حق، وإذا قَدِرَ لم يأخذ ما ليس له.

وقد رويناه مسندًا من طريق.

وقال سرىٌّ بن المغلس: ثلاثٌ يستبين بهن اليقين: القيام بالحق فى مواطن الهلكة، والتسليم لأمر الله عزّ وجلّ عند نزول البلاء، والرضا بالقضاء عند زوال النعمة. نعوذ بالله منه.

وقد روينا عن النبى ﷺ: «ثلاثٌ مَن كُنّ فيه استكملَ إيمانه: لا يخاف فى الله لومة لائم، ولا يرائى بشىء من عمله، وإذا عُرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة؛ آثر الآخرة على الدنيا».

وفى الخبر المشهور: «ثلاثٌ منجيات، وثلاث مهلكات. فأما المنجيات: فخشيةُ الله فى السر والعلانية، وكلمةُ العَدْلِ فى الرضا والغضب، والقصدُ فى الغنى والفقر. وأما المهلكاتُ: فشحٌّ مطاع، وهوًى متّبع، وإعجابُ المرء بنفسه».

وروينا فى الخبر: «التكرمُ التقوى، والشرفُ التواضع، والغنى اليقين». وفى الحديث الآخر: «الإيمان عريان؛ ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وثمرته العلم».

وفى حديث عمار أسنده إلى رسول الله ﷺ: «كفى بالموت واعظًا، وكفى بالخشيةِ عِلمًا، وكفى باليقين غِنًى، وكفى بالعبادة شُغلاً».

وروينا عن رسول الله ﷺ سيد الخطباء، وخطيب الخطباء، وحكيم الحكماء، فى خطبة الوداع، كلمات جامعات موجزات، فى الوعظ والتذكرة والتزهد والتبصرة، وينتظم جميع معانى ما قيل فى معناها، رواه أبان بن عياش، عن أنس ابن مالك، أن رسول الله ﷺ خطب على ناقته فقال: «يا أيها الناس، كأنّ الموتَ

فيها على غيرنا كُتِبَ، وكأن الحقَّ فيها على غيرنا وَجَبَ، وكأن مَنْ نُشيِّع من الأموات سَفْرٌ عمَّا قليل إلينا راجعون، نبوِّئهم أجداثهم، ونأكل تراثهم، كأنّا مخلَّدون بعدهم، قد نسينا كل واعظة، وأمِنَّا كلَّ جائحة. طوبى لمن شغله عيبُ نفسه عن عيوب الناس، وأنفق من مالٍ اكتسبه من غير معصية، ورحم أهلَ الذلِّ والمسكنة، وخالط أهلَ الفقه والحكمة. طوبى لمن أذلَّ نفسه، وحَسُنَتْ خليقته، وصَلُحَتْ سريرته، وعزل عن الناس شرَّه. طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، ووسعته السُّنة، ولم يَعْدُها إلى بدعة».

وقد روى عنه ﷺ حديث جامع لهذه المعانى المبثوثة، مختصر فى اللفظ والمعنى، يقال إنه نصف العلم، وهو قوله: «من حُسْن إسلامِ المرءِ تَرْكُه ما لا يَعنيه». وما لم يُؤمر به العبد فرضًا، ولم يُندب إليه فضلاً، ولا يحتاج إليه مباحًا، فهو مما لا يعنيه.

وفى حديث آخر، هو نصف الورع، قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، فإن الإثم حوّاز القلوب» أى: دع ما تَشُكّ فيه من قول أو فعل، فإن فيه غنيمة أو سلامة إلى شىء أنت على يقين من الفضيلة فيه أو السلامة معه، وما حزّ فى قلبك ولم ينشرح له فدَعْه، فإن ذلك إثم، وإن قلَّ ودقَّ.

وقد روينا عنه ﷺ فى الوصف المبسوط من أوصاف المؤمنين، كوصف الله تعالى أولياءه فى الكلام المشروح، أنه بينا هو جالس ﷺ بين أصحابه إذ سجد فأطال، ثم رفع رأسه مادًّا يديه، فقال: اللهم أكْرِمنا ولا تُهِنَّا، وزدنا ولا تنقصنا، وأعزّنا ولا تذلّنا. قلنا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: أُنزلت علىَّ آيات مَنْ أقامها دخل الجنة، ثم تلا علينا: ﴿قد أفلحَ المؤمنُونَ﴾ [المؤمنون:١] إلى آخر العشر.

وروينا عنه ﷺ فى حديث مجمل أن رجلاً سأله، فقال: يا رسول الله، متى أعلم أنّى من أهل الجنة؟ ـ وفى لفظ آخر: أنى مؤمن حقًا ـ فقال: إذا كنت بهذه الأوصاف، ثم تلا عليه: ﴿قد أفلحَ المؤمنُونَ * الذينَ هُم فى صَلاتِهِم خَاشِعُونَ﴾ إلى آخر النعوت.

وروينا عنه ﷺ فى الوصف الجامع المختصر، كوصف الحكيمِ الأكبر مَن صلُح له من عباده بالإخلاص فى التوحيد والعمل، فقال ﷺ: «لو لم تنزلْ علىّ إلا هذه الآية كانت تكفى[١]. ثم قرأ آخر سورة الكهف: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُواْ لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] إلى آخرها». فكان هذا فصل الخطاب، وبلاغًا لأولى الألباب.

فالعملُ الصالحِ بالإخلاصِ[٢] فى العبادة، ونفى الشرك بالخلق؛ هو اليقين بتوحيد الخالق. وقد قال الله، وهو أحسنُ القائلين، فى وصف أوليائه الخائفين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١]. فوصفهم بسبع مقامات جامعات بالغات، تنتظم بمقامات أهل المحاسبة، وتستحوذ على معانى أحوال أهل المراقبة. افتتحها بالخشية والإشفاق، وختمها بالوَجَل والإنفاق، وجعل موجبها اليقين، وهو الذى رجحت به موازين المتقين، صيّره آخر وصفهم ونهاية نعتهم، وهو قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أى لأجل يقينهم بمرجعهم إليه خافوه وأشفقوا وآمنوا به، وأخلصوا وأتوه نفوسهم وأموالهم، فهذا كقوله فى الكلام المختصر: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فللخائفين الأمن من الخوف عند اللقاء، وحسن المنقلب والبشرى بالقرب لديه والزلفى.

فصورةُ المحاسبة: أن يقفَ العبدُ وقفةً عند ظهورِ الهمّة، وابتداءِ الحركة، ثم يميِّز الخاطرَ وهو حركةُ القلبِ، والاضطرابَ وهو تصرف الجسم. فإن كان ما خطرَ به الخاطرُ من الهمّة التى تقتضى نيةً، أو عقدًا، أو عزمًا، أو فعلاً، أو سعيًا؛ إن كان لله عزّ وجلّ وبهِ وفيه، أمضاهُ وسارع فى تنفيذِه[٣]. وإن كان لعاجلِ دنيا،

---

(١) فى (ك): «الكفتنى».

(٢) فى (ط): «الإخلاص» وما أثبتناه من المخطوط أدق وأصح.

(٣) كان ثَمَّ اضطراب وتكرار فى (ط) فومته من (ك).

أو عارضِ هوى، أو لهوٍ وغفلةٍ سرَى بطبعِ البشريةِ ووصفِ الجَبلية، نفاهُ وسارعَ في نفيهِ، ولم يمكّن الخاطرَ من قلبهِ بالإصغاءِ إليه، والمحادثةِ له، فيولّد فيه همًّا رَديًّا يصعب عليه بعد حينٍ طرحُه، وينتج منه فِكرًا دَنيًّا يعسر بعد وقتٍ نفيه، ويؤثر ذلك في قلبه أثرًا يستبين له بعد حينٍ فعلُه.

معنى قولنا «إن كان لله تعالى»: أي خالصًا لأجله. ومعنى قولنا «فيه»: أي بمشاهدة قربه، لا بمقارنة نفسه ووصفه وهواه. ومعنى قولنا «فيه» أي: في سبيله وطلب ما عنده، لا لأجلِ عاجل حظه[1].

فإن اشتبه عليه الخاطر، فلم ينكشف له ما ورد به، أمحمودٌ هو لله عز وجلّ فيه رضاه وعلى العبد فيه سبق وتنفيذ، أم مكروه وليس لله فيه محبة وللعبد في نفيه مزيد وقربة؟ فيكون إشكال ذلك لأحد معان ثلاث: ضَعْف يقينٍ عن نقص معرفة بالمُبتلى، أو قلة علمٍ عن جهل بغامض الحكم الباطل، أو لغلبةِ هوًى كامنٍ في النفس متولد من طبائع الحس. وقد قال بعض العلماء: ليس العالمُ الذي يعرف الخير من الشر، هذا الجاهل يعلمه[2]، ولكنّ العالمَ مَن يعرف خيرَ الشّرين؛ يعني يفعله إذا اضطر إليه، وعَرَف شرَّ الخيرين؛ يعني فاجْتنبه لما يؤول إليه.

واعلم أنَّ حكمَ الله فيما اشتبه من الأمور الإمساكُ والوقوفُ، وأن لا يُقْدم العبدُ على ذلك بعَقْدٍ ولا عزم إن كان من أعمال القلوب، ولا يُمضي ذلك بفِعْل ولا سَعْي إن كان من عمل الجوارح، بل يقف ويُوقف الأمرَ حتى يتبين له. وهو صورة الورع، لأن الورع هو الجبن والتأخر عن الإقدام على المشكلات، وعن الهجوم على الشبهات[3]، لا بقول ولا بفعل ولا بعقد حتى تنكشف، وانكشافها بغامض العلم لغموضها، وتدقيق معرفة المعاني لدقتها وخفائها، كما جاء في الخبر: «أعلمُ الناسِ أعرفُهم بالحق إذا اختلف الناس». وعن النبي ﷺ: «إن الله

(١) هذا الشرح تكرر في المطبوعة في ثنايا الفقرة السابقة، وليس كذلك في (ك).

(٢) في (ط): «هذا العاقل يعرفه» وأثبت ما في (ك).

(٣) في (ك): «لأن الورع هو الجبن والتأخر عن الإقدام على الشبهات، وعلى الهجوم على المشكلات». و«على» الثانية من (ك) وهي في (ط): «في الشبهات».

عزّ وجلّ يحب البصيرَ الناقدَ عند ورود الشبهات، والعقلَ الكاملَ عند هجوم الشّهوات».

وجاء عن ابن مسعود فى وصف كثرة الشُّبهات: أنتم اليومَ فى زَمَنٍ خيرُكم فيه المسارع، وسيأتى عليكم زَمان يكون خيرُكُم فيه المتثبِّت[1].

كما وقف طائفة من الصحابة عن القتال مع أهل العراق وأهل الشام، لمّا أشكل عليه الحال، منهم: سعد، وابن عمر، وأسامة، ومحمد بن مسلمة، وغيرهم.

فمن لم يتوقف عند الشبهات وأقدم عليها كان متبعًا لهواه، معجبًا برأيه، وهذا من معنى الخبر الذى جاء فى ذم من كان هذا وصفه: «فإذا رأيتَ شُحًّا مطاعًا، وهوًى متبعًا، وإعجابَ كل ذى رأيٍ برأيه، فعليك بخاصةِ نَفْسك».

فلم يذم بوجود الشح؛ لأنّه صفة النفس، وإنّما ذمّ من أطاع النفس فى شحّها، بإمساك محبوبها على إيثار محبة الله عزّ وجلّ من الإنفاق. ومثله: «وهوى متبع»، فلم يعب بوجود الهوى، لأنه روحُ النفس، مستكن فيها، وإنما عيب باتباعه. وكذلك قوله: «وإعجاب كلّ ذى رأى برأيه»، لم ينقصه وجود رأيه ممّا رآه من الأمر، لأنه نتيجة عقله وثمرة فهمه، وإنما نقصه بنظره إليه وإدلاله به، دون سبق نظره إلى من أراه، وبنور هداه، وبإيثار رأيه على رأى من هو أعلم منه، أو بأن يُزرى على رأى غيره افتخارًا برأيه. وقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]. وقد وصف أهل الرأى من أوليائه فى قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر ٧٥]. وقال تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وجاء فى الأثر: «ما رآه المؤمنون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رآه المؤمنون قبيحًا فهو عند الله قبيح». وجاء: «أنتم شهداء الله فى أرضه». وعن بعض السلف: أفضلُ العبادة الرأىُ الحسن.

فأما ما أشكل، لتجاذب الأمثال، ولم يتبين لك إلى أى مَثَل ترده، فالورعُ أن

(١) فى (ط): «المثبت» وأثبت ما فى (ك).

تقف ولا تمضى حتى ينكشف.

وأما ما اشتبه لقصور العلم بالاستدلال، فالعلم فيه أن تعرف الأصلين من الحرام والحلال، ثم تردّه إلى أشبههما به، وهذا ظاهر، مثل ما أحلّت طائفةٌ النظرَ إلى الغلام الجميل، لأنه ذَكَرٌ، فتحتاج إلى أن ترده إلى أحد الأصلين، لأنه مشتبه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الانعام:٩٩]، وقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور:٣٠]، فكان هذا الأصل أشبه لوجود الجنس.

ومثله الاستماع إلى القصائد، أى إنشاد الشعر المباح، فكان الاستماع إلى القرآن حلالاً، والاستماع إلى الغناء حرامًا، وكانت القصائد بالغناء أشبه، فكرهناه لغير أهله.

وكذلك القول فى تلحين القرآن: إذا جاوز الحدّ فى مد المقصور، وقصر الممدود، مكروه لشبهه بالأغانى. ومثل لبس القطن ولبس الحرير، فكرهنا لبس الْمُلْحَمِ[1] والعمل به؛ لأنّه بالحرير أشبه، لما فيه منه.

فأما الإقدام على الأمور الغامضة، مما لم ينكشف للأسماع فلم يظهر للأبصار، فإنّ القلوب تُسأل عن عُقود سوءِ الظن بها، والقطعِ بظاهر الأمر عليها، وهو معنى قول الله عزّ وجلّ عن قَفْو ما لم يبين علمه إذا لم يُجعل من علم العبد وتهدده عليه بمساءلة الجوارح عنه، فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أى لا تتبع ولا تجسس أثر ما لم تعلم، فتشهد عليه بسمع أو رؤية أو عقد قلب، إذ حقيقةُ العلم: السّمعُ أو المشاهدةُ، فلذلك قال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦]. وكذلك قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظّنّ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث». فمن اشتبه عليه الأمر فقطع به فهو متبع للهوى، ومَن تفرّس فى فعلٍ أو أمرٍ غابَ عنه حقيقته، فأخبر به وأظهره على صاحبه، فقد أساء كثيرًا.

(١) الْمُلْحَم: جنس من الثياب.

وقد جاء فى الخبر: «من حدّث بما رأتْ عيناه، أو سمعتْ أُذُناه، كتبه الله عزّ وجلّ من الذين يُحبّون أن تشيعَ الفاحشة فى الذين آمنوا». هذا لكشفِ ستر الله على عباده، ومحبته للسّاترين منهم.

ولذلك كان من دعاء أبى بكر الصديق رضى الله عنه: اللهم أرِنا الحقّ حقًّا فنتبعه، والباطلَ باطلاً فنجتنبه، ولا تجعل ذلك علينا متشابهًا، فنتبع الهوى.

وكذلك رُوِينا عن عيسى عليه السلام: إنّما الأمورُ ثلاثة: أمرٌ استبانَ لك رُشدُه فاتّبعه، وأمر استبانَ غيُّه فاجْتنبه، وأمرٌ أشْكَل عليك فكِلْه إلى عالمه.

وقد كان من دعاء علىٍّ رضى الله عنه: اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى العلم بغير علم به.

فنعمةُ الله سبحانه وتعالى فى كشف الباطلِ باطلاً وبيانِ الضلال ضلالاً مثْلُ نعمه فى إظهار الحق، وبيان الصدق؛ لأنه باب من اليقين، ولذلك تجمَّل اللهُ به على نبيه ﷺ، وجعله من تفصيل آياته، فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥]، فنَصْبُ «سبيل» على إضمار اسمه، ورفعه على كشف دلالاته وتبيان طرقه.

وقد وعد اللهُ ذلك للمتقين، وقدّمه على تكفير السيئات والمغفرة، وأخبر أن ذلك من الفضل العظيم، فى قوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [الأنفال:٢٩] أى: نورًا فى قلوبكم تفرقون به بين الشبهات. ومثله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ أى: من كل أمر أشكل على الناس، ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢ ـ ٣] علم بغير تعليم، بل إلهام وتوفيق من لدن الخبير العليم. وقد وعد الله ذلك المؤمنين عند اختلاف العلماء، للبغى بينهم، وهو الكبر والحسد، وحرَّم ذلك على المنافقين الذين لا يصدّقون بالآيات والقُدَرِ الغائبات[1]، فقال عزّ وجلّ فى ذلك: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ

(١) القُدَر. جمع قُدْرة. الغائبات: الغيبية.

فيه إلاَّ الَّذين أُوتُوهُ من بَعْد مَا جاءَتْهمُ البيِّنَات بَغْيًا بيْنَهُمْ فهَدَى اللهُ الّذين آمَنُوا لمَا اخْتَلفُوا فِيه منَ الحَقِّ بإذْنه﴾ [البقره ٢١٣]، فصُنع الهداية للحق أن يكشف الحقّ إذا هدى التقى له، ما يبدئ الباطل للابتلاء وما يعيد على العبد من الأحكام.

وقد يكون الباطل اسمًا للعدوّ، ويكون وصفًا للنفس، ألم تسمع قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ جَاءَ الحَقُّ وَمَا يُبْدئُ البَاطِلُ وَمَا يُعيدُ﴾ [سبا:٤٩] أي: لما جاء الحق أبدى الباطل وأعاده، فأظهر حقيقة الأمر بدءًا وعودًا. وقد قيل: إن الباطل يعنى به إبليس ههنا، فتدبروا. وقال: ﴿إنَّ الذينَ لا يُؤْمنُونَ بِآيَاتِ الله لا يَهْديهِمُ اللهُ﴾ [النحل:١٠٤].

وكما أن الله عزّ وجلّ [ذَكَرَ أنَّ] فى البيان نعمة، لأنه لا يقع إلاّ بقُدرة، كما قال: ﴿فلمَّا تبَيَّنَ لَهُ قَال أعْلَمُ أنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيء قَديرٌ﴾ [البقرة:٢٥٩]، فكذلك على العبد فيه شكر قد يكون سببًا للإنعام بالبيان، وعلى الله المزيدُ على الشكر، كما قال: ﴿كَذلِكَ يُبيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِه لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٨٩]. وقال فى تحقيق الشكر بالمزيد للشاكرين على التصريف: ﴿كَذَلِكَ نُصرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨].

فإذا تَوَقَّفَ العبد فى الشّبهات عن الإمضاء، وأوقف الخاطر على الابتداء، حتى يكشفه الله عزّ وجلّ له بمزيد علم أو قوة يقين أو كشف حجاب الهوى، فقد وُفّق للصّواب، وهو من معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿وآتَيْنَاهُ الحكْمَةَ وَفَصْلَ الخطَابِ﴾ [ص:٢٠] وداخل فى قوله: ﴿ومَنْ يُؤْتَ الحكْمَةَ فَقَدْ أُوتىَ خَيْرًا كثيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]. هذا إذا لم يُرِدْهُ بالطلب، ولم يجعل لعالم آخر فيه مكانًا، كشفه للعبد بوصفه، فإذا أراده بالطلب لأوليائه، وجعل للعلماء مكانًا للدلالة عليه، اضطره أن يسأل عالمًا بالله وبباطن أحكامه، عارفًا بلطيف حجابه وخفى كَشْفه، فيكشف له على لسانه إذا لم يكن العبد ممن يكاشف بقلبه، لتحقيق قوله: ﴿فَاسْأَلُوا أهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، ولتصديق قوله: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٩].

والله تعالى هو المسيّر الأوّل، والمبيّن الآخر، إلا أن السّير والسؤال على العبد، والهدى والبيان على الهادي المبين، كما قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا﴾ [النمل:٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ﴾ [يونس:٩٤] الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة:١٩]، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل:١٢]، ﴿وعلى الله قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:٩].

كذلك سننه التي قد خلت من قبل، ولا تبديل لها ولا تحويل. ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١]. فهذا هو المجتبى للتعليم، الآخذُ نصيبه من الله عزّ وجلّ، بتفهيم المصطفى لمكان التخصيص. ثم قال: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فلمّا أنبأهُم بأسْمائِهِم﴾ ترك آدمَ، وردّ إليه، وذكر نفسه بالعلم منه بعد أن دلّ بالواسطة عليه، فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ﴾ [البقرة:٣٣] ولم يقل: إن آدم يعلم، فأخذ آدم نصيبه من رازقه بقلبه لمكان رتبته، وأخذت الملائكة أنصبتها من الله عزّ وجلّ من نصيب آدم بواسطته، والله هو الرزاق ذو القوة المتين، كما هو الخلاّق: ﴿هَلْ مِن خَالِقٍ غَيرُ اللهِ يَرْزُقُكُم﴾ [فاطر:٣]؟

والعبيد يأخذون أنصبتهم بأقسامهم من حيث هي طرق وسبب لهم، وهذا حينئذ أول المحاسبة عن مشاهدة حسيب، والتّحقيق بالمحاسبة هو أول المراقبة عن رؤية رقيب، والمقام من المراقبة هو حال من أحوال الموقنين، وعلم اليقين هو آخر علم الإيمان، وآخر نصيب العبد من علم اليقين - أعني نهايته - أوّل عين اليقين، وهو شهادة المعرفة. والمعرفةُ على هذا الوصف أوّلُ المشاهدة، وهذا هو مقام المقربين، أعني بمشاهدة وصف قريب يحيط ببُعد النفس فيستولي عليها، فيغيب بعدها في قُربه، ويَتيه عقلُه تحت ظنه، وتنطوي حكمتُه في قدرته، كمَحْو نور القمر في ضياء الشمس، والله غالبٌ على أمره.

وعلمُ معاني الأسماء والصفات، وتعريف الأخلاق وباطن أحكام الذات، يكون في مقامات القرب بمرآة نور الوجه، فيرفع نور حكم المكان، ويشهد كأنه رفعَ كونَ المرآة، ويشهد الوجه بنورها، وتغيب المرآةُ عن كونها، فيكون العبدُ قائمًا

بقهرِ قيوميته، فيصيرُ العبدُ شبهَ ميتة، مشاهداً بحيطة قُربه لا بكونه، كما يشهد الوجه بنور المرآة لا بجسمها، ولا يكون هذا إلا بعد معاينة[١] وصف، وبعد حُسن المراقبة فى جميع[٢] المعاملة، وحسن الأدب فى محاضرة الربّ، بتنفية خواطر الخير، وسرعة نفى خواطر الشرّ، حتى لا يبقى شيء منها. وهذا حالُ المشاهدة والقُرب، وذلك يُخرج العبدَ إلى صفاء القلبِ بعلم اليقين، وصفاءُ القلب يرفعه مقامات فى مشاهدة العين حتى لا يَخْطُر بقلبه[٣] إلا خاطر حق، فإن عصاه عصى الحق. وفى ترك هذا والغضّ عنه كَدَرُ القلب، وفى كَدَره ظلمته. وذلك مقامات فى القَسْوة، وهى أوّلُ البُعد.

وبلغنى أن ما من فِعْلَةٍ وإن صغُرت إلا ويُنشر لها ثلاثة دواوين: الديوان الأول: لِمَ؟ والثانى: كيف؟ والثالث: لمن؟ فمعنى: لِمَ، أى لِمَ فعلت؟ وهذا موضع الابتلاء عن وصف الربوبية بحكم العبودية، أى: أكان عليك أن تعمل لمولاك أم كان ذلك منك بهواك؟

فإن سَلِمَ من هذا الديوان، بأن كان عليه أن يعمل كما أُمر به، سُئل عن الديوان الثانى، فقيل له: كيف فعلتَ هذا؟ وهو مكان المطالبة بالعلم، وهو البلاء الثانى، أى: قد عملته بأن كان عليك عمله، فكيف عملته؛ أبعلمٍ أم بجهلٍ؟ فإنّ الله تعالى لا يقبل عملاً إلا من طريقه، وطريقه العلم [والإخلاص][٤].

فإن سَلِم من هذا نُشر عليه الديوان الثالث، فقيل: لمن؟ وهذا طريق التعبّد بالإخلاص لوجه[٥] الربوبية، وهو البلاء الثالث، وهم بغية الله عزّ وجلّ من خلقه، الذين قال فى حقّهم: ﴿إِلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، وهذا مقتضى كلمة الإخلاص من نَفْى ما سواه، وهى لا إله إلا الله. وليس بعده إلا الإشفاق إلى وقت التلاق، أى قد عملته بعلم، فلِمَن عملته؟ لوجه الله عزّ وجلّ

(١) فى (ك): «بعد مشاهدة».

(٢) فى (ك): «من جميع».

(٣) فى (ك): «فى قلبه».

(٤) ساقطة من (ط).

(٥) فى (ك): «لوجد».

خالصًا فأجرك عليه، أم لشخصٍ مثلك فخُذْ أجرك منه، أم عمله لتنال عاجلَ دنياك، فقد وفّينا إليك عملك فيها، أم عملته لنفسك بسَهْوك وغفْلتك، فقد سقَط أجرُك وحَبِط عملُك لذهابك عن القصد وعدم النية فى الفعل؟

فجميع ما أردتَ به سواه ثمّ تعرضتَ للمقتِ واستوجبتَ العقابَ بترك ما عليك، وجَهِلت[1] ما لمولاك، إذ كنتَ عبدًا لى وتتولى غيرى، وإذ أنت تأكل رزقى وتعمل لِسواى، وإذ كان الدين قد جعلتُه لنفسى فقصدتَ به من دونى. ويلك، أمَا سمعتنى أقول: ﴿أَلاَ لله الدِّينُ الخَالصُ﴾ [الزمر:٣]، ويلَكَ، ما قبلتَ أمْرى إذ قلتُ: ﴿وما أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ له الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥].

ويقول له: ويلك أما سمعتنى أقول: ﴿إِنَّ الذين تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُون لَكُم رِزْقًا فَابْتَغُوا عندَ اللهِ الرِّزْقَ واعْبُدُوه﴾ [العنكبوت:١٧]؟ [فيكون توبيخه بعزائم كلامه وغليظ خطابه أشدَّ عليه وأوجع من أليم عذابه][2].

فهذه أمثال القرآن يشهد بها العلماء أمثالَهُم، وهى أركانُ الخطابِ[3] عند تدبّره يَفْهم بها العارفون أذكارهم، وهى توبيخُ اللهِ عزّ وجلّ للغافلين، وعزائمُ كلامه[4] وغليظُ خطابه أشدُّ عليهم وأوجعُ لهم من أليمِ عقابِه؛ وذلك أنَّ الله تعالى استخلص الدِّين لنفسه، ولم يُشرك فيه أحدًا من خَلْقه، فقال: ﴿أَلاَ لله الدِّينُ الخَالصُ﴾، يعنى الطريق الموحد غير المشترك، الصافى غير الكدر؛ لأنّ الإخلاصَ التصفيةُ من أكدار الهوى والشَّهوة، وضده الشّرك وهو الخَلْط بغيره من النّفس والناس، كما أنعم علينا بالرزق الخالص من بين الفرث والدم، فتمّت به النعمة، فقال: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فى بُطُونِه مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ ودَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ [النحل:٦٦]، فلو وُجد فيه خلط من أحدهما لم تتم به النعمة علينا.

---

(١) فى (ط): «وجهل».

(٢) هذه التكملة من (ك).

(٣) فى (ط): «وهى إنما كان الخطاب» وأثبت ما فى (ك) لأنه أصح وأدق.

(٤) فى (ط): «فيكون توبيخ الله عز وجل للغافلين بعزائم كلامه» وأثبت ما فى (ك)، وفيها شبه مع

فكذلك ينبغى أن يكون عملنا له خالصًا من الهوى والشَّهوة؛ لنستحق به الأجر والحظوة منه، مع القيام بواجب الحق علينا، فكما أنّا لو رأينا فى اللبن الذى أنعم به علينا فرثًا أو دمًا عافته أنفسنا، فلم نأكله، فكذلك الحكيم الخبير إذا رأى فى عملنا خلطًا من رياء أو شهوة، ردَّه علينا فلم يقبله، وكما عمل لنا مما عملت يده بقدرته أنعامًا ذلّلها لنا، منها رَكُوبنا ومأكَلُنا، فينبغى أن نشكره، فنعمل له بعد الأكل عملاً صالحًا، كما أمرنا بعد إذ أنعم اللهُ علينا، فقال: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].

فمن جهل ما جعل اللهُ لنفسه، وترك ما أُمر به من الإخلاص بالدين لوجهه، استوجب المقتَ لجهله، واستحقّ العقابَ لمخالفته. وفى تدبّر ما قلناه الهرب من الخلق، والبكاء على النفس إلى لقاء الحق، لمن أشهد ووقف، وأُريد بالحضور فلم يُصرف[1].

❊ ❊ ❊

(١) فى (ك): «لمن أشهد وراقب، وصلى الله على محمد عبده».